

مجلة أنثروبولوجية (الأويان) المجلد 16 (العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

التفسير بالمدنّس للنصّ المقدّس

دراسة في ضوء الأنثروبولوجيا الدّينية لتفسير بعض الآيات القرآنيّة

The profane interpretation of the sacred text

Study in the light of religious anthropology for the interpretations of (

(some of the Qur'anic verses

محمد الحبيب منّادي⁽¹⁾

Menadi mohammed lahbib

(المركز الجامعي بأفلو)

(University Center of Aflou)

(mhm79mhm@gmail.com)

تاريخ القبول: 2020/03/08

تاريخ الارسال: 2020/02/16

ملخص البحث :

يُعتبر " الدّين " مكوّنًا أساسيًا في الوجود الإنساني ، الذي يسعى الإنسان من خلاله لتفسير الكون والحياة ، وأصل الوجود ومآلات المصير ، وهو ما جعل الدّين محوراً أساسياً في موضوعات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، بل بديلاً فكرياً وثقافياً للتفسيرات العلمانيّة لأصل الوجود وعلاقة الإنسان بالكون والحياة ، وقد اعتبره " أوجست كونت " ثاني المراحل الثّلاث التي فسّر بها تطوّر الاجتماع الإنساني ، ليتحوّل من التّفكير الأسطوري الخرافي إلى التّفكير الدّيني ووصولاً إلى التّفكير العلمي الموضوعي .

ويُشكّل " الجنس " الأساس البيولوجي لهذا الوجود الإنساني ، غير أنّ الدّين والجنس يقفان على طرفي نقيض في التّصنيف الثّقافي لمضامين كلّ منهما ، باعتبار الدّين مقدّساً ، واعتبار الجنس مدنّساً في الحسّ الاجتماعي العام . لكنّ القارئ لكتب الثّراث الإسلامي وتفسير القرآن المختلفة يجد هذا الجمع بين المقدّس والمدنّس ممكناً ، ممّا يحمل على طرح الإشكالات الآتية : كيف تناول النصّ القرآني تيمة " الجنس " باعتبارها أساس الوجود الإنساني وسبيل إعمار الكون ؟ هل كان التّفكير الجنسي لبعض آيات القرآن خاضعاً

¹ المؤلف المرسل، محمد الحبيب منّادي mhm79mhm@gmail.com

للممارسات الشعبيّة الأنثروبولوجيّة والثّقافيّة ممّا يجعله في ساحة الاجتهاد البشري يُمنع من خلاله الجمع بين هذين التقيّضين (الدّين والجنس) ؟ أم هو نقلٌ أمينٌ لدلالات اللفظ القرآني ممّا يجعله فوق إمكانيات الطّعن والمراجعة ؟ ويسعى هذا البحث إلى الإجابة عن هذه الأسئلة في ظلّ معطيات علم الأنثروبولوجيا الدّينيّ الذي يُعدُّ فرعاً من علم الأنثروبولوجيا العام ، والذي يتقاطع مع ما تُتيحه الأنثروبولوجيا الثّقافيّة في تفسير تشكّلات اللغة ودلالات استعمالها في التّواصل الإنسانيّ ، وتأويلها .

الكلمات المفتاحيّة : الجنس ، الدّين ، الثّقافة ، الأنثروبولوجيا ، القرآن ، التّفسير .

Abstract :

Religion is an essential component of human existence. Through religion, man seeks to explain the universe and life, the origin and the end of existence, It is a main subject of sociology and anthropology, Rather, it is an intellectual and cultural alternative to secular interpretations of the origin of existence and the relationship of man to the universe and life. Auguste Comte considered it the second stage in the development of the human society. It has shifted from legendary mythical thinking to religious thinking to objective scientific thinking. Sex is the biological basis for human existence, But religion and sex are inconsistent with cultural classification. This is what makes us pose the following problems: How did the Qur'an treat the theme of "sex" as the basis of human existence and the way to rebuild the universe? Was the sexual interpretation of some verses of the Qur'an subject to popular anthropological and cultural customs?

Key words: sex, religion, culture, anthropology, Quran, interpretation .

مقدّمة :

يُعدُّ " إميل دوركايم " من علماء الاجتماع البارزين الذي أوّلوا الظّاهرة الدّينيّة اهتماماً بالغاً أسّس من خلاله لمفاهيم الاجتماع الدّيني وحاول من خلال دراساته الميدانيّة إعطاء تفسيرٍ اجتماعي للدّين بوصفه إسقاطاً اجتماعيّاً تعظيميّاً لممارسات اجتماعيّة معيّنة يقوم خلالها المجتمع بإعادة صياغة تلك الممارسات ضمن رموز دينيّة تملك صفة " المقدّس " ، وقد صاغ رؤيته الاجتماعيّة للدّين في كتاب : (الأشكال الأوّليّة للحياة الدّينيّة) ، واستطاع من خلال دراساته الميدانيّة ، وتنظيره لمفهوم الدّين أن يصوغ مفهوم كلّ من

"المقدس" و "المدنس" ، وكذا مفهوم (الضمير والعقل الجمعي) ، مما أتاح إمكانية فهم الدين وفق رؤيا أنثروبولوجية تتغير فيها المفاهيم وتكتسب صفة التقديس أو التدنيس من واقع التفاعل الاجتماعي والتغيرات الاجتماعية للمفاهيم الدينية ، مما سمح بدراسة الظاهرة الدينية دراسة علمية بعيدة عن الدرس اللاهوتي .

وهو ما يمكن أن نفهم في ضوءه إمكانية الجمع بين المقدس والمدنس في تفسير بعض العلماء لآيات من القرآن الكريم تفسيراً يتلبس بالفهم البشري ، مما يجعله " سلوكاً اجتماعياً " يخضع لتغيرات البشر ومفاهيمهم لعلاقة الرجل بالمرأة والدوافع الغريزية البيولوجية ، ولا يمكن أن يكون مفهوماً " دينياً " بالمعنى اللاهوتي بوصفه صادراً عن الله في ذاته العلية .

وقد كان لـ " ماكس فيبر " ، فضل الريادة في دراسة العديد من الظواهر الدينية دراسة اجتماعية سمحت له بتأسيس فرع علم (اجتماع الدين) بمفهومه الحديث والمعاصر .

وموضوع بحثنا هذا تنقسمه فروع مختلفة من الأنثروبولوجيا ، فهو يدخل ضمن الأنثروبولوجيا العضوية أو الفيزيائية للاهتمام بالجسد باعتباره آلة ممارسة الجنس ، والأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية باعتبار الجنس أساساً للوجود الإنساني ، والأنثروبولوجيا اللغوية لما يقوم عليه فهم دلالات الآيات القرآنية من تحليل لغوي لمضامينها ، وتأتي إشكاليته من تفسيره تفسيراً جنسياً ، وهو ما يدخل بذلك ضمن الأنثروبولوجيا الدينية . مما يتوجب معه أن نضع تعريفاً سريعاً كمفتتح لدراستنا هذه نعرف به ماهية الأنثروبولوجيا وبعض غاياتها في دراسة موضوع بحثنا الذي يجمع بين " الدين " و " الجنس " بوصفهما مادتين مهمتين للدرس الاجتماعي في شقيه الجسدي والروحي .

ويقتضي التوسع في هذا البحث تتبع الدلالات الجنسية في سور القرآن الكريم وما جاء في التفسير لبعض تلك الآيات ، للسمو بهذه العلاقة الإنسانية وعدم النظر لها بدوئية ، وكفي أن نعرف فيها ارتباط طرفي الدين والجنس ، بما يكون عند ممارسته ، حيث تبدأ بالفاتحة (التي تبدأ بالبسملة ، والتي تكون - أي البسملة - بداية أيضاً في العلاقة لدفع ضرر الشيطان وحضوره في علاقة الرجل بامرأته ، ثم (حمد الله) على هذه العلاقة ، وسورة البقرة التي هي في أساسها علاقة حب انتهت بالقتل ... ووصولاً إلى سورة الناس) ... وهو ما يمكن أن يُشكّل بمجموعه دراسة شاملة يمكن لتائجها أن تُجيب عن إشكالات البحث ، وهو ما لا تُتيح مساحته هذا البحث مما يقتضي الإشارة إليه ، وكفي اللبيب حسن الإشارة ، ولا ينفع البليد تطويل العبارة ، وقد صدق من قال :

تَكْفِي اللَّيْبِ إِشَارَةٌ مَرْمُوزَةٌ *** وَسَوَاهُ يُدْعَى بِالْبَدَاءِ الْعَالِي

الجنس والدراسة الأنثروبولوجية :

ما يجعل دراسة " الجنس " ضمن إطار الأنثروبولوجيا هو البدايات الأولى للدراسات الأنثروبولوجية ، التي كان فيها الجسد [يُنظر : الجسد في القرآن الكريم : [الأعراف : 148] و [طه : 88] و [الأنبياء : 08] [ص : 34]] موضوعاً للدراسة البيولوجية « بالرغم من قدم هذا المصطلح أو هذه الكلمة في تاريخ المعرفة الإنسانية إلا أن استعمالها بدأ فعلياً مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث ازداد الاهتمام بها وبالأخص في الأوساط الثقافية الأنكلوساكسونية (بريطانيا وأمريكا) ، وكان الاهتمام في هذه المرحلة منصباً على الأنثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيائية ، أي إنَّ الجسد كان محور اهتمامات الدراسات الأنثروبولوجية ومركزها . وبعد ذلك تمَّ جمع الموضوعين كليهما في موضوع واحد سمي بالأنثروبولوجيا الاجتماعية » (تيلوين مصطفى ، 2011 م ، ص 17) .

وإذا نظرنا إلى أهمّ المواضيع التي عالجتها الأنثروبولوجية الدينية سنجد في مقدّماتها أصل الخليقة والنشوء الإنساني ، فإننا نجد قصّة آدم وحواء أشهر " القصص " في مختلف الديانات السماوية ، تختلف في تفاصيلها وتتفق على أصلها العام ، من نشوء هذا الاجتماع الإنساني بتلك العلاقة الجنسية بين آدم وحواء ، و« من المفاهيم الشعبية الشائعة التي يتناقلها بعض المشتغلين بالعلم ، ولا نقول أدعياءه ، أن حواء هي التي أوقعت آدم في الإثم وورطته في الخطيئة . وهذه المفاهيم ما هي إلا رأس حلقة في سلسلة إلقاء اللوم على المرأة تبعاً للقول المعروف :

إِذَا رَأَيْتُ أُمُورًا مِنْهَا الْفَوَادُ تَفَتَّتْ *** فَتَشَّ عَلَيْهَا تَجِدُهَا مِنَ النِّسَاءِ تَأْتَتْ » (بوحديّة عبد الوهاب ، 2001 م ، ص 10) .

ويشترك هذا المعنى " العربي " في قول الشاعر مع دلالة المثل الفرنسي الدارج : (cherchez la femme) (فتش عن المرأة) (بوحديّة عبد الوهاب ، 2001 م ، ص 10) ، الذي يُرسخ فكرة أن المرأة هي مصدر الخطيئة ، وأنها مصدر العصيان ، الذي كان من آدم ، وهو ما يتنافى مع صريح منطوق القرآن في نسبة الخطيئة لآدم وحده ، دون ذكر حواء ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [البقرة : 121] . مع اشتراكهما - بعد ذلك - في العقوبة بدلالة قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة : 123] . وهو ما حمل على تأويل الخطيئة بـ " العلاقة الجنسية " ، وهو ما يمكن

اعتباره مصدر " التّدينس " لهذه العلاقة ، و « أنّ العصيان كان من آدم مشتركاً معه حوّاء ، ولا سيما إذا أخذنا بالتفسير الذي يجعل الشجرة المنهي عنها هي القربان الجنسي ، ولا يُمكن بحال أن يتمّ عصيان آدم إلّا بأن يشرك معه حوّاء » (بوحدية عبد الوهاب ، 2001 م ، ص 10) . وهذا ما يحمل على القول بتداخل المفهوم الديني " اللاهوتي " المقدّس ، بالاجتماع الإنساني " الجنسي " المدنّس ، ممّا يجعلها أحد موضوعات علم الأنثروبولوجيا .

وبهذا يتّضح وجه ربط الموضوع بالأنثروبولوجيا الدينيّة حيث يرجع لاهتمام الأنثروبولوجيا بالدين باعتباره ظاهرة اجتماعيّة مهمّة في الاجتماع الإنساني ، وفي تعريف الأنثروبولوجيا نجد أنّها « علم من العلوم الإنسانيّة يهتمّ بمعرفة الإنسان معرفةً كليّةً وشموليّةً (...) [وهي] علم من العلوم الإنسانيّة يهتمّ بدراسة الإنسان من حيث قيمه (قيم جماليّة ، دينيّة ، أخلاقيّة ، اقتصاديّة ، وثقافيّة واجتماعيّة) ومكتسباته الثقافيّة » (تيلوين مصطفى ، 2011 م ، ص 19 - 20) . كما أنّنا نجد أنّ كلمة "الأنثروبولوجيا" كانت في القرن 17 « تطلق في مقابل الكسمولوجيا وهو علم الكون وفي مقابل الثيولوجيا (علم الإلهيات) » (تيلوين مصطفى ، 2011 م ، ص 20) .

ويصف " جعفر نجم نصر " أنثروبولوجيا الدين بأنّها " موضوع حسّاس ومعقّد " ، ويوضّح ذلك بالقول : « هناك خاصيّتان اثنتان ظلّتا ملازمتين للدراسة الأنثروبولوجيّة للدين وهما الحساسيّة والتّعقيد ، والمقصود بالخاصيّة الأولى الاستفزاز الذي تُمارسه استنتاجات هذه الدّراسات داخل الأوساط الدينيّة خصوصاً المتشدّدة منها ، أمّا الخاصيّة الثّانية وهي الأهمّ هنا والمقصود بها الطّابع الانفلاقي للدين كموضوع للدراسة الأنثروبولوجيّة والسّوسيوولوجيّة ، فالدين من وجهة نظر هذه المقارنة لا يقبع داخل قوالب جامدة ومُحسّنة ، وإنّما نمط تفكير وسلوك متغيّر ومتحرّك يمسّ كافّة مجالات الحياة اليوميّة يفعل فيها وينفعل بها ، وعليه يعدو الدين بهذا المعنى الواسع والدينامي صعب الرّصد والضّبط والتّحديد » (جعفر نجم نصر ، 2017 م ، ص 01) . وترداد حساسيّة الدّراسة الأنثروبولوجيّة للدين حينما يتمّ ربطها بـ " تابو " اجتماعي آخر وهو الجنس ، وقد أعطى القرآن إشارة إلى إمكانية معالجة " التّابوهات " الجنسيّة تحديداً وفي حالات تطرّفها وشذوذها ، بالمجادلة والمُحاكاة بطريقة علميّة بعيدة عن أيّ تشنّج فكري ، وذلك في إشارته إلى دفاع سيّدنا إبراهيم عليه السّلام عن (أصحاب الشّذوذ الجنسي) ، وهم (قوم) لوط - عليه السّلام - حيث قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 74] . مع ما جاء في الأثر

من طلب الملائكة من إبراهيم - عليه السلام - أن يُعرض عن ذلك لسبق عذاب الله لقوم لوط - عليه السلام - . كما أن وصف العلاقة الجنسية - التي تُعدُّ السَّبب المادّي للوجود البشري - بأوصاف " المدنّس " مدعاة - هي الأخرى - للجدل إذ « إنّ تسمية النّشوة الناشئة عن ممارسة الجنس بالشّهوة البهيمية إحباط لها وانتقاص من قيمتها الإنسانيّة والاجتماعيّة والحضاريّة والدّينيّة . كيف يُنسب أعزُّ شيء يتخلّق منه الإنسان على أنّه بهيمي؟! »

(بوحديّة عبد الوهاب ، 2001 م ، ص 11) وهذا الأمر هو ما كان السَّبب الطّبيعي (البيولوجي) في وجود الأنبياء والصّالحين ، بل عموم الخلق أجمعين ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذّاريات : 49] ، ممّا يجعل " العلاقة الجنسيّة " ذاتها بين الرّجل والمرأة يختلط فيها " المقدّس " بـ " المدنّس " بحسب المواضع الاجتماعيّة في النّظر إلى علاقة الرّجل بالمرأة وحدود العلاقة الجنسيّة المسموحة بينهما بل نجد أنّ مطلق " العلاقة الجنسيّة " كان يخضع للاعتبارات الاجتماعيّة ، ويعكس حقيقة كون الأمر اجتماعيّاً يخضع للتّغيير اختلاف أدلّة التّحريم في " المثليّة الجنسيّة " ففي الحديث : عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : " من وجدتموه يعمل عمل لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " . وهذا نصٌّ صريحٌ بوجوب " القتل " عقوبةً لهذا " المدنّس " ، وهو ما يؤكّده قول " الحافظ " في (التلخيص) حيث يذكر أيضاً : حديث " من وجدتموه يعمل عمل لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " ، وقد رواه أحمد " و " أبو داود " واللفظ له و " الترمذي " و " ابن ماجه " و " الحاكم " و " البيهقي " من حديث " عكرمة " عن " ابن عبّاس " ، ومع ما يُشبه الإجماع في هذه حكم هذه المسألة إلا أنّنا نجد " التّسائي " قد استنكره . وروى الحديث " ابن ماجه " و " الحاكم " من حديث " أبي هريرة " وإسناده أضعف من الأوّل بكثير . (عون المعبود في شرح سنن أبي داود) ، ج 12 ، ص : 157 . وهو ما نجده في اختلاف العلماء في حدّ " المثلي " ، حيث اختلفوا في حدّ اللوطي فذهب الشّافعي في أظهر قوليّه وأبو يوسف ومحمد إلى أنّ حدّ الفاعل حدّ الزّنا ، أي إن كان محصّناً يَرجم وإن لم يكن محصّناً يُجلد مائة ، وعلى المفعول به عند الشّافعي على هذا القول جلد مائة وتغريب عام رجلاً كان أو امرأة محصّناً أو غير محصن . وذهب قومٌ إلى أنّ اللوطي يَرجم محصّناً كان أو غير محصن . وبه قال مالك وأحمد ، والقول الآخر للشّافعي أنّه يُقتل الفاعل والمفعول به كما هو ظاهر الحديث : وقد قيل في كيفيّة قتلها هدم بناء عليهما ، وقيل

رميهما من شاحق كما فعل بقوم لوط ، وعند أبي حنيفة ولا يُحَدّ . على ما جاء في (تحفة الأحوزي في شرح سنن الترمذي) .

وقد يبدو هذا الطرح في معالجة " المدنس " على أنه معالجة دينية (فقهية) صرف ، إلا أننا نجد أنّ القضايا الدينية عموماً كانت تحظى بالاهتمام الأنثروبولوجي ، و« لا يقل الاهتمام الأنثروبولوجي لدراسة الدين عن الاهتمامات السوسيولوجية ، لكن اهتمامات الأنثروبولوجيين تركزت في البدايات في مجملها على ما يمكن تسميته بالتصورات والمعتقدات التي كانت سائدة في مجتمعات الشعوب النائية البسيطة على البنى الاجتماعية في آسيا وأفريقيا والعالم الجديد ، تلك التي كانت تسمى بالبداية ، وتعد دراسات " إيفانز برتشارد " حول دين ومعتقدات قبيلة (النوير) في جنوب السودان نموذجاً مهماً » (أبو بكر أحمد، الأنثروبولوجيا والدين) .

وبعد أن تأكد التعلق بين الدرس الديني والدرس الأنثروبولوجي ، يمكننا أن نعرض سريعاً لتعلق الموضوع مع الأنثروبولوجية اللغوية في تشريح واقع الجنس في المجتمع العربي باعتبار اللغة " رموزاً " تحمل دلالات ثقافية ، يمكن تصنيف دلالاتها ضمن ثنائيات " المدنس والمقدس " ، ومن ذلك ما نجده في دراسات " كليفرد جيرتس " التي « تعتمد على ما يُعرف بمنهج الفهم الفييري ، والتأكيد على دراسة المعاني والرموز التي يشرح بها أصحاب هذه المجتمعات أفعالهم . ولقد قارن في دراسته بين مفهوم الإسلام في كلٍّ من إندونيسيا والمغرب ، وكيف أنّ جملة من الرموز والشخصيات المحورية لعبت أدواراً مهمة في تجسيد تفسيرات مهمة ليس فقد على الممارسات الدينية التي تتمحور حول المقدس والبركة وأهمية دور الولي في حياة الناس ، وإنما أيضاً في كيفية إعادة صياغة تفسير النصوص الدينية التي ، بالتالي ، تدفع لظهور معانٍ جديدة تسمح (للإصلاح) أو (التغيير الديني) » (أبو بكر أحمد، الأنثروبولوجيا والدين) . وهو ما يمكن أن نستنتج منه أنّ كثيراً من الأحكام الدينية (الفقهية) يمكن اعتبارها ممارسات للفهم البشري ، وما يُكسبها " تقديسها " هو شخص القائل لها أو طبيعة النص الذي يعمل على تأويلها، وهو في موضوعنا هذا منطوق كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو ما أنزل عليه من وحي القرآن الكريم .

وهذا التقريب الأنثروبولوجي لطبيعة " المقدس " وتفكيك أسباب قدسيته هو ما يسمح بتناوله دون هالة التقديس التي تحول دون ذلك ، و« ربما تساعدنا الدراسة الأنثروبولوجية (علم الإنسان الاجتماعي وعلم الإنسان الثقافي) للدين ، على معرفة كيف نفكر وكيف تتشكل القيم والأفكار ، وفي ذلك يمكن

السيطرة على المعتقدات الزائفة ، ومواجهة التّميّط في الأفكار والمعتقدات ، بل ونعيد فهم التاريخ الإنساني وكيف صارت مصالح أساساً لمعتقدات راسخة تشكّل النَّاس في صراعات مديدة . وكيف تحوّلت مصالحنا ومخاوفنا إلى فلسفة وعقائد متماسكة نحارب الآخرين لأجلها » (غرايبة إبراهيم ، 2018 م ، مقدّسات ومحرمات (بل وكيف تناوبت موقعيّة " المدنّس " و " المقدّس " بينهما بحسب الفهم البشري وتعاقب الأزمان ، واختلاف آليات التّأويل .

وهذا ما يُعين على تقديم تفسيرات " عقلية " لما يعتبره البعض " مقدّساً " في حين لا يعدّو أن يكون الكثير منه ، - لا سيما ما تعلّق بتيمة " الجنس " - خاضعاً للأهواء والاعتبارات الاجتماعية ، وهو ما يُتيح رفع القدسيّة عن مصادر تقديسها ، ورفع ملابسات التّدينس لبعضها إلّا في حدود ما تمّ التّواضع عليه وارتضاه المجتمع ، وفي مثل هذا نجد أنّ " مارفن هاريس " في كتاب (مقدّسات ومحرمات وحروب) « يقدّم تفسيراً عقلانياً للسلوك والمعتقدات الدّينية ، بالنّظر إليها محاولات لحماية الموارد وتنظيمها بإيجابية ، وتحويل الأعمال والأفكار المفيدة إلى مقدّسات دينيّة ، أو في عبارة أخرى مواجهة الإغواء الذي يضُر المنظومة الاقتصادية والاجتماعيّة بالتحريم الإلهي ، وتوظيف المحرمات والمقدّسات في وظائف اجتماعيّة واقتصادية ، وبالطّبع فإنّه منهج قديم في الفهم العملي والعقلاني للدّين سواء من جانب اللاهوتيين أنفسهم أو علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا » (غرايبة إبراهيم ، 2018 م ، مقدّسات ومحرمات) . والذي في ضوئه يمكننا أن نفهم كيف كان للمجتمع الإسلامي - مثلاً - في عهوده السّابقة أسواق للجواري تُباع فيها النّساء ، ويُعاين فيها البائع من يودّ شراءها من الجوّاري ، دون أن يكون في ذلك أيّ استنكار له في واقع الحسّ المجتمعي ، بل نجد أنّ الفقهاء ميّزوا حينها بين عورة الأمة وعورة الحرّة ، وجعلوا عورة الأمة كعورة الرّجل ، أي ما بين السرّة إلى الرّكبة ! وبقي هذا إلى عصور متأخّرة دون أن يكون في إطار المدنّس .

رؤية أنثروبولوجيّة لغويّة لواقع الجنس في المجتمع العربي والإسلامي :

عاش المجتمع العربي في جاهليّته حياة منطلقة في ممارسة الجنس بين الذّكر والأنثى ، احتلّت فيه المرأة الحلقة الأضعف فكانت هي موضوع العلاقة الجنسيّة في المدوّنة الثّقافيّة العربيّة ، تخضع في ذلك للأعراف السّائدة عند العرب في الاجتماع الإنساني التي تتراوح بين العفّة التي تحول بين الرّجل واجتماعه مع المرأة خارج نطاق العلاقة الزّوجيّة ، كالذي نجده في قول " عنتر بن شدّد " :

وَأَعُضُّ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي *** حَتَّى يُؤَارِي جَارَتِي مَأْوَئَهَا

وبين المجون الذي دَوَّنه الشعراء والكتّاب والمؤرّخون في التّاريخ لهذه الفترة ، فقد عرفت الحياة الجاهليّة - أيضاً - حياة التّهتُّك الذي يُبيح للرّجل والمرأة أن يمارسا " حرّيّة جنسيّة " دون قيدٍ أو شرط . وقد كانت هذه الحرّيّة توصف بـ " المجون " وهو وصفٌ يدخل في خانة " المدنّس " مع كونه وصفاً للسلوك الإنساني العام الذي لا يُراعي عادات مجتمعه في مثل هذه العلاقة أو غيرها فـ « المجون أن لا يُبالى الإنسان بما صنع ، أو الذي لا يُبالى بما قال ولا بما قيل له » (ابن منظور ، [؟] مجن) ممّا يجعله خارج إطار القهر الاجتماعي والإبعاد المجتمعي .

وقد استمرّت تلك " الحرّيّة الجنسيّة " إلى ما بعد وجود الإسلام بفترات طويلة ، لا يُمكن أن " ترقى " إليها حتّى الحياة المعاصرة ! وهو ما حمل البعض إلى القول إنّ : « موقف العرب من الجنس كان كلّهُ حرّيّة وانطلاق . فما كانوا يتحرّجون من الحديث عن المرأة والجنس ومن التّأليف فيهما . وأعتقد أنّ حرّيّتهم هي التي سبّبت التزوّج الذي نجده اليوم » (المنجد صلاح الدّين ، 1958 م ، ص 06) . ولعلّ من الطّريف أن لا يكون الجنس بوصفه ذا دلالة " فاحشة " خاصّاً بالعرب في اجتماعهم الإنساني ، بل انتقل إلى معنى " العربيّة " عندهم فمن « الطّريف أن أشير إلى أنّ (الإعراب) و (التعريب) ، الفحش وما قبّح من الكلام . قال ابن عبّاس في قوله تعالى " فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ " هو العرابة في كلام العرب . والعرابة كأنّه اسمٌ موضوعٌ من التعريب وهو ما قبّح من الكلام » (السّامرائي إبراهيم ، 1979 م ، ص 71) .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك أنّ تسميات التّطوّر في وصف سنّ المرأة مثلاً يخضع لاعتبارات " جنسيّة " عند الوصف ، إذ يتمّ وصف المرأة بما تكون عليه " أئدأؤها " صِعراً وكبراً بحسب السنّ ، وما تكون عليه قُدّرتها الجنسيّة بمرور الوقت ، فنجد أنّ العرب كانت ترتّب سنّ المرأة هذا التّرتيب الجنسيّ فهي " طفلة " ما دامت صغيرة ، ثمّ " وليدة " إذا تحرّكت ، ثمّ " كاعب " إذا كعب نديها ، ثمّ " ناهد " إذا زاد ، ثمّ " مُعصّر " إذا أدركت ، ثمّ " عانس " إذا ارتفعت عن حدّ " الإعصار " ، ثمّ " حَوْد " إذا توسّطت الشّباب ، ثمّ " مُسلف " إذا جاوزت الأربعين ، ثمّ " نصّف " إذا كانت بين الشّباب والتّعجيز ، ثمّ " شهلة كهلة " إذا وجدت سنّ الكبر ، وفيها بقيّة جلد ، ثمّ " شهيرة " إذا عجزت ، وفيها تماسك ، ثمّ " حيزون " إذا صارت عالية السنّ ناقصة القوّة ، ثمّ " قلّغم " و " لطلط " إذا انحنى قُدّها ، وسقطت أسنانها ...

وبعد مجيء الإسلام عرفت " العلاقات الجنسيّة " ضبطاً في الممارسة بتحريم أشكال معيّنة في ارتباط الرّجل بالمرأة والإبقاء على أشكالٍ أخرى ، وعدم الاستقرار في تحديد علاقات جنسيّة معيّنة إذ يتمّ تحليلها

في ظروف معينة ، وتحريمها في ظل ظروف أخرى ، ومنها " زواج المتعة " مثلاً . ولكنّه في الوقت ذاته بقي خاضعاً لـ " سلطة المجتمع " تقدماً وتخلّفاً في التعاطي مع تيمة " الجنس " ، التي لم تمنع كبار العلماء من تناولها ضمن مؤلفات وبشكل تفصيلي دقيق ، كان لا يخرج عن حدود الدّين في الاستشهاد والتّأويل ، أو العرض والمحاكاة ، في حين يُصنّف هذا الثّراث ضمن خانة " البورنوغرافيا " لتطالعه صفة " التّدنيس " بعد أن كان محفوظاً ضمن حوزة " التّقديس " .

وأمام القول بتقديس الدّين وتدنيس الجنس يرى البعض أنّ العلاقة الجنسيّة لا يُمكن اعتبارها ضمن " المدنّس " لكونها الأساس في الوجود والتكاثر البشري ، وغيره من أشكال الوجود الحيواني - كما أسلفنا - وأنّ وصف العلاقة الجنسيّة بـ " البهيميّة " أو " الحيوانيّة " هو حطّ من قيمتها العالية حيث « تسمية النّشوة النّاشئة عن ممارسة الجنس بالشّهوة البهيميّة إحباط لها وانتقاص من قيمتها الإنسانيّة والاجتماعيّة والحضاريّة والدّينيّة . كيف يُنسب أعزّ شيء يتخلّق منه الإنسان على أنّه بهيمي ؟ ! » (بوحديّة عبد الوهاب ، 2001 م ، ص 11) ومما يعكس سموّ هذه العلاقة عدم خفاء الكلمات ذات الدّلالة الجنسيّة في كتاب الله ، أو النّاشئة عن العلاقة الجنسيّة ، ومنها : الرّوجيّة ، أو الأبناء باعتبارهم نتاج العلاقة بين الرّجل والمرأة ، والحُرث ، النّسل ، لباسٌ لكم / (هن) ، باشرهنّ ، المضاجع ، أنكحوا الأيامي منكم... إلخ . وأنّ القرآن قد عالجه دون حرجٍ باعتماد أسلوب (التّلطّف) في العبارة بما يُناسب قُدسيّة النّصّ ، حيث نلمح سموّ ألفاظ القرآن وعقّتها في الحديث عن العلاقة الجنسيّة : سموّ القرآن .. وعقّة أسلوبه ، وبراعة إشاراته وكريم توجيهه يظهر عند تعبيره عن " التّلاقي الجنسي " مرّةً بالمباشرة ، وأخرى بالُملازمة ، وثالثة بالمواقعة أو الإفضاء أو المضاجعة .. ، أو " الإتيان " ... والمستقرى لألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته في هذا الميدان كقوله : ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة : 187] . ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النّساء : 43] ، [المائدة : 06] . ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة : 187] . ﴿فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة : 197] . ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : 222] . المتنبّع لهذه الآيات السّالفة يجدها ، ومثيلاتها تتسم بالإشارة والتّلميح ، أو يلفها ملفوفة في غلالة من رقيق اللفظ ، أو مصبوبةً في قالب كنائي جميل : ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ ، ﴿فَلَمَّا تَعَسَّاهَا﴾ ، ﴿لَامَسْتُمُ﴾ أو تشبيهات أخاذاة ! كتشبيه النّساء بالحرث في قوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ .

كما أنَّ الفترة الإسلامية لم تكن خالية من الممارسات المنبوذة اجتماعياً للعلاقات الجنسية ، بل رصدت أقلام المؤرخين والكتّاب ظواهر جنسية قد تُستغرب في تلك الفترة لما أحيطت به من هالة " التّقديس " التي تجعل علاقة الرجل بالمرأة خارج إطار العلاقة الزوجية ، من أعلى صفات " التّدنيس " ، ويكفي أن نذكر هنا وجود بعض " المختّنين " في عهد رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلّم : ف « عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، أنَّ مُخَنَّنَيْنِ كانا على عهد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يُقال لأحدهما : هَيْتُ ، وللآخر : ماتعٌ ، فهلك ماتعٌ وبقي هَيْتٌ بعدُ ، قال ابن وهب : وحَدَّثني مَنْ سمع أبا معشرٍ يقولُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلّم أمرَ به فُضِرَبَ . فذكر الحديث . (وسيأتي في ترجمة هيت) » (ابن حجر العسقلاني ، 1995 م ، ج 9 ، ص 412) فهذا النّصّ ينقل وجود فئة اجتماعية منبوذة ، لخروجها عن طوق الممارسة الجنسية السّليمة بما تحمله من مظاهر خاصّة توصف بـ " التّخنيث " تكون به جنساً " ثالثاً " لا هو رجلٌ ولا هو امرأة ، ومما يعكس اكتساب هذا السلوك ، وأنّه ليس عن خِلقة لمن يمتلكون أعضاء " خنثويّة " مثلاً ممّا لا يمكن أن يقع ضمن اختيارهم ، هو عقاب الرّسول صَلَّى الله عليه وآله وسلّم — بحسب هذا النّصّ — لمن بقي من هذين المختّنين . إذ لو كان ممّا لا قبل له به من أصل الخلقة ، لما عاقبه على ذلك .

ومما يعكس صغر الهوة التي كانت بين المقدّس والمدنّس في العرف الثّقافي ، انتشار أسواق الجوّاري والعبيد ، أين يتمّ عرض مفاتن المرأة ومساومة صاحبها في بيعها ، كظاهرة اجتماعية انقضت اليوم (أو تكاد) ! ، دون أن ننسى ما كان يُدوّن من " أدب " حول تلك العلاقات شعراً ونثراً ، حتّى وقت قريبٍ ، ممّا لم يكن يدخل ضمن الاستهجان الاجتماعي ، بل كان ضمن ما يمكن أن نعتبره في خانة (الأنثروبولوجيا الثّقافية) التي لا ترى عيباً أن تعالج موضوع " الجنس " كمدنّس ضمن كتب دينيّة كـ " مقدّس " ، ويكفي أن نضرب أمثلة عن ذلك بالموّلفات الثّرائيّة الإسلاميّة التّالية ، التي تطرّقت إلى ما يسمّى " الباه " باللغة القديمة ، أو " الجنس " و " الإيروتيكا " بلغة اليوم ، وهي عناوين تحتزن دلالات جنسيّة واضحة ، لا تميل فيه إلى التّدنيس بل تعكس دلالات على التّقديس في حدّوده الدّنيا ، وحياة التمتع والسّرور بذلك ، وهو ما تعبّر عنه دلالات الرّبيع والتّجدّد والحياة والانبعاث والولادة ، وغيرها ، مثل :

01 - كتاب " الرّوض العاطر في نزهة الخاطر " ، للعلامة الشّيخ " محمّد النّفزاوي " ،

02 - وكتاب " تحفة العروس ومتعة النفوس " لـ " محمّد بن أحمد التّجاني " ،

03 - وكتاب " رجوع الشّيخ إلى صباه في القوّة على الباه " لـ " ابن كمال باشا " ،

- 04 - وكتاب " زهر الربيع " للشيخ الجزائري ،
- 05 - وكتاب " نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب " لـ " شهاب الدين أحمد التيفاشي " ،
- 06 - وكتاب " بستان الرّاعبين " ، لـ " محمد مصطفى العدوي " ،
- بل نجد لبعض من تصدّوا لتفسير القرآن وكان لهم جهودهم في خدمة القرآن الكريم وعلومه ، لم يمنع ذلك من التأليف عن هذا المقدّس ، أن يكتب عن " المدّس " دون حياءٍ من وصفه بأوصاف مباشرة لا تعتمد التلميح ، والتلطف في العبارة ، بل جاء هذا في عنوان كتابه الموصوف بـ : " نواظر الأيك في معرفة الله .. " ! وهو الإمام " السيوطي " .
- وأغلب هؤلاء المؤلّفين - ممّن ذكرنا - معدودون ضمن طبقة " العلماء " و " رجال الدين " ممّا لا يمكن أن يُصنّف به نتائجهم ضمن خانة المدّس . ومن أبرز " رجال الدين " وعلمائه ، بل والمعدودين ضمن المجدّدين في الدين بحسب ما يراه هو نفسه في أحد منظوماته في " المجدّدين " العالم : جلال الدين السيوطي - رحمه الله - ، ومن مؤلفاته التي كتبها في معالجة موضوع " الجنس " نذكر (السيوطي جلال الدين ، ص ص 16 - 17) :
- 01 - الإيضاح في أسرار النكاح (وهو في جزأين : الأوّل : في أسرار الرجال ، والثاني : في أسرار النساء) .
- 02 - الأيك في معرفة الله .. . وقد ذكر مع العنوان الذي أشرنا إليه منذ قليل بعنوان " نواظر الأيك... " . وقد يكون نفس الكتاب .
- 03 - شقائق الأترنج في رقائق الغنج .
- 04 - مباسم الملاح ومناسم الصّباح في مواسم النّكاح .
- 05 - نزهة العمر في التّفصيل بين البيض والسّود والسّممر .
- 06 - نزهة المتأمّل ومرشد المتأهّل .
- 07 - الوشاح في فوائد النّكاح .
- 08 - اليواقيت الثّمينة في صفات السّمينة .
- 09 - نواهد الأبكار وشوارد الأفكار .

وكُلُّها كُتِبَ ذات دلالة على ما وصفناه بـ " المَدَنَس " تبدأ غالباً بِحُطْب من ذكر آيات النصِّ القرآني الكريم ، وأحاديث رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، لتنفى عن متلقِّيها صفة التَّدَنيس وتجعلها ممَّا يُمكن تناوله دون حرج .

والدِّراسة وفق الأنثروبولوجيَّة الدِّينيَّة للتَّعاطي مع موضوع الجنس ، هو ما يسمح لنا بكشف الملابس الاجتماعية التي تُحيط بتفسير النصِّ القرآني بخلفيَّة جنسيَّة ، تعكسها نفسيَّة المفسِّر من جهة ، وروح العصر الذي كتبها فيه ، لتشكِّل حقيقة اجتماعيَّة (بمعنى أنَّها تخضع لسُنن التَّفَاعُل والتَّغَيُّر ...) ، وليست حقيقة سننيَّة إلهيَّة ثابتة . ممَّا يجعلنا نتساءل عن بعض القضايا والأحكام المتعلِّقة بالجنس هل تُخضعها للتَّطوُّر الاجتماعي ، أم تبقى خاضعة لسلطة الفرض الدِّيني الثَّابت ، ومن ذلك مثلاً " إشكالِيَّة الاغتصاب " ، حيث نجد الدِّين الإسلامي يشترط وجود أربعة شهود ، فالْمَغْتَصَبَةُ تُجْلَد حدَّ القذف لمن اغتصب لأَنَّها لا تملك أربعة شهود ... وهذا قُصُور في حدِّ الرِّثَا . وَحَدُّ الشَّهَادَةِ ﴿ فَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ . ممَّا يجعل مثل هذا الاستشهاد موافقاً لظروف المجتمع الذي نشأ فيه ، وتكفي فيه " الكلمة " والإشهاد للكشف عن الجاني ، ووصف الرِّثَا ... ، أمَّا اليوم فالكشف عن الجاني أصبح متطوِّراً ، فماذا نفعل بالبصمات ، أو ثلاثة نساء يشهدون بدل رجلين أو رجل وامرأتين ... وهذا أيضاً قصور في الشَّهَادَةِ ؟ ! ممَّا يفتح المجال على مناقشة التَّدَاخُل بين كشف " المَدَنَس " بما وضعه النصِّ " المقدَّس " من نُصوص ، وهل يُمكن أن تتغيَّر بتغيُّر واقع الحال ؟ وهو ما يقع خارج نطاق بحثنا هذا ، لتتجاوزنا إلى عرض بعض نماذج التفسير الجنسي ، ونبيِّن من خلالها أنَّها كانت تخضع للواقع " الأنثروبولوجي " للمفسِّر ، ونظراته الخاصَّة لهذا " المَدَنَس " ، وليست تعبيراً عن حقيقة النصِّ الإلهي " المقدَّس " .

نماذج للتفسير الجنسي للآيات القرآنيَّة :

قال الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : 19] . فنجد أنَّ المعنى العام الذي توحى به هذه الآية ، ممَّا يعكس ما يدور في صُدُور كلِّ واحدٍ مِنَّا ، يُخَصَّص بما يدور فيها من شهوة يكون دافعها الجنس ، وهو ما نجده في قول " ابن عبَّاس " - رضي الله عنهما - حين قال : « هو الرَّجُل يدخل على أهل البيت بيَّتهم وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمرُّ به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا عنها لحظ إليها ، فإذا فطنوا غضَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غضَّ ، وقد أطلع الله تعالى من قلبه أنَّه ودَّ لو أطلع على فرجها » ! (ابن كثير الحافظ إسماعيل بن عمر ، 2010 م ، ج 04 ، ص 1822) . وهذا - وإن كان من

ضمن ما تُخفي الصدور - لا يُمكن حصر معنى الآية فيه ، ويكون من قبيل ما ذكرنا عن وصف المقدّس بالمدنّس ، وهو ما أثبتته التّفسيرات المختلفة .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ [الحجر : 24] . تبدو دلالة الآية مبهمّة دون معرفة سياقها ، وأسباب نزولها ، ليأتي تفسير المفسّرين لهذه الآية بأنّ دافعها " جنسي " ، وهو ما كان يجده بعض " الصّحابة " ! في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله من شهوة التّلبّص على النّساء ، وهم في الصّلاة ! ، فقد روى التّرمذي والنّسائي والحاكم وغيرهم عن ابن عبّاس قال : « كانت امرأة تصلّي خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حسناء من أحسن النّاس فكان بعض القوم يتقدّم حتّى يكون في البّصف الأوّل لئلاّ يراها ويستأخر بعضهم حتّى يكون في الصّف المؤخّر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين الآية » (ابن كثير ، ج 02 ، ص 1121) . فهذا بعض أوجه التّفسير " الجنسي " لدلالات النّص القرآني ، وإذا أخذنا بالروايات الأخرى فسنقع في إشكاليّة التّأويل وتعدّد التّفسيرات .

ويقول الإمام (أبو حامد الغزالي) : " وعن عكرمة ومجاهد أنّهما قالا في معنى قوله تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ ، إنّ لا يصبر على النّساء ، وقال فيّاض بن نجيح : إذا قام ذكر الرّجل ذهب ثلثا عقله ، وبعضهم يقول : ذهب ثلث دينه ، وفي نوادر التّفسير عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - : (ومن شَرّ غاسقٍ إذا وقب) قال قيام الذّكر " . وهذه بليّة غالبّة ، إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين ، وهي مع أنّها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين (الدّنيويّة والأخرويّة) فهي أقوى آلة للشّيطان على بني آدم » (محمّد جاد ، 1979 م ، ص 22 - 23) . فهذا تعبير واضح عن كون ما يتحرّك من شهوات الإنسان إنّما باعته شيطاني ، ممّا يحمل على القول بتدنيسه ، ومع هذا لا يمنع هذا العلماء من تفسير بعض الآيات - التي لا يحمل ظاهرها أيّ دلالة جنسيّة - بهذا التّفسير الجنسي الواضح ، ممّا يحمل على التّساؤل عن دافع ذلك ، وسبب تخصيص الآية بما هو من متضمّناتها ، وليس من دلالات ألفاظ النّص ومعانيه ، ويأتي التّبرير لهذا التّفسير بما نجده من قول الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى - بعد الذي ذكره : " وكان الجنيد يقول : " احتاج إلى الجماع كما احتاج إلى القوت " فالزّوجة على التّحقيق قوت ، وسبب لطهارة القلب " ، ولذلك أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كلّ من وقع نظره على امرأة فتأقّت إليها نفسه أن يجمع أهله ، لأنّ ذلك يدفع الوسواس عن النّفس .

ومن الآيات التي تحمل في ظاهرها ما حمل البعض على تفسيرها تفسيراً جنسياً قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ [النمل : 44] . لنجد في تفسير " ابن عجيبة " أموراً عجيبة لتفسير هذه الآية ، إذ يقول : « ﴿ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾ : روي أَنَّ سليمان - عليه السَّلام - أمر قبل قدومها ، فبنى له على طريقها قصرًا من زجاج أبيض ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فيه السَّمَك وغيره ، ووضع سريره في صدره ، فجلس عليه ، وعكف عليه الطَّير والجنُّ والإنس . وإنما فَعَلَ ليزيدها استعظاماً لأمره ، وتحقيقاً لنبؤته . وقيل : إِنَّ الجنَّ كرهوا أَنْ يتزوَّجها ، فتفضيَّ إليه بأسرارهم لأنَّها كانت بنت جَنَّة . وقيل : خافوا أَنْ يولد له منها ولدٌ ، فيجتمع له فطنة الجنِّ والإنس ، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك أشدَّ منه ، فقالوا له : إِنَّ في عقلها شيئاً ، وهي شعراء السَّاقين ، ورجلها كحافر الحمار ، فاخترَ عقلها بتنكير العرش ، واتَّخذ الصَّرْح ليتعرَّف ساقِها ورجلها فكشفت عنهما ، فإذا هي أَحسنُ النَّاسِ ساقاً وقدماً ، إلَّا أنَّها شعراء ، وصَرَف بصره . ثُمَّ قَالَ لها : إِنَّهُ صَرَّحَ مُمَرَّدٌ مُلَسَّ مستوٍ . ومنه : الأمر ، للذي لا شَعَرَ في وجهه ، مِنْ قَوَارِيرٍ من الرُّجَّاج ، وأراد سليمان تزوُّجها ، فكَرِهَ شَعْرَهَا ، فعملت له الشَّيَاطِين النَّوْرَةَ ، فنكحها سليمان ، وأحبَّها ، وأقرَّها على ملكها ، وكان يزورها في الشَّهرِ مرَّةً ، فيقيم عندها ثلاثة أيَّام ، وولدت له ، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان - عليه السَّلام - ، فسبحان من لا انقضاء للملكه » (ابن عجيبة أحمد بن محمد بن المهدي ، 1419 هـ ، ج 04 ، ص 199) . فهذا تفسيرٌ لا يخلو من التَّصوُّر التَّخيليِّ لمحاولة تفسير أسباب ذكر " كشف المرأة لساقِها " وهي دلالة جنسيَّة واضحة ، تحمل الكثير من الإغراء ليتساءلوا عن سرِّ وجودها في النصِّ " المقدَّس " فشرعوا في صياغة هذه القصص ، وزادهم فيها أقاصيص الجنِّ والعفاريت وخیالات القصَّاص ...

وفي تفسير آخر لـ " ابن الجزي " نجد في كتاب " التَّسهيل لعلوم التَّنزيل " ما يُطابق التفسير السابق بقوله : « الصَّرْح في اللغة هو القصر ، وقيل صحن الدَّار ، رُوي أَنَّ سليمان أمر قبل قدومها فُبنيَّ له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى الماء من تحته ، وألقى فيه دوابَّ البحر من السَّمَك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه فلمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، واللجة الماء المجتمع كالبحر فكشفت عن ساقِها لتدخله لَمَّا أُمِرَتْ بدخوله ، ورُوي أَنَّ الجنَّ كرهوا تزوُّج سليمان لها ، فقالوا له إِنَّ عقلها مجنون وإنَّ رجلها كحافر الحمار فاخترَ عقلها بتنكير العرش فوجدتها عاقلة واختبر ساقِها بالصَّرْح فلمَّا كشفت عن ساقِها وجدتها أَحسنُ النَّاسِ ساقاً فتزوَّجها وأقرَّها على مُلكها باليمن ، وكان يأتيها مرَّةً في كلِّ شهر وقيل أسكنها معه

بالشَّام » (ابن جُزي أبو القاسم محمَّد بن أحمد ، 1995 م ، ج 02 ، ص 132) . والملاحظ على هذه التفسيرات استعمال المبني للمجهول في وصف الحدث بقالو إنَّ هذا الكلام " رُوي " ، ممَّن لا يُعلم ، ليكون بذلك مدعاة لقبول ما فيه مت تحويل ، أو تخيل ، حتَّى أنَّه " نكحها " أو " تزوّجها " بعد بناء هذا الصَّرح الفريد ، وشدَّة تعلُّقه بها وعدم صبره عليها حتَّى أنَّه يزورها مرَّةً في كلِّ شهر و" قيل " أسكنها معه بالشَّام !

الجنة والخور العين :

تُشكِّل " الخور العين " نموذجاً للعقلية الجنسية التي تفسَّر بها لفظة من ألفاظ القرآن الكريم ، ممَّا يطرح إشكالية وصف الجنة عند هؤلاء المفسِّرين ، ولعلَّ هذا ما حمل " عمر الحَيَّام " على أن يصف تصوُّر المسلمين للجنة بهذا التصوير اللاذع الذي يقول فيه عن وصف الجنة ونعيمها بقوله :

" تقول إنَّ أنهار النَّبيذ تتدفَّق في الجنة

أجنة هي أم حمارة ؟

وحوريَّتان تنتظران المؤمنين

أجنة هي أم بيت للدَّعارة ؟ " .

وعلى هذا النمط من التفسير الجنسي نجد وصف دقيقاً لمفاتيح المرأة في التفسير ، محاولة لتبيين دلالات بعض الألفاظ ، كالذي نجده في قوله تعالى : ﴿ وَكَوَاعِبٌ أَثْرَابًا ﴾ [النَّبَأ : 33] . وينبغي " ابن القيم " - رحمه الله - في وصف " الكواعب " بقوله : « وهو جمع كاعبٍ ، وهي المرأة التي قد تَكَعَّبَ ثديها واستدار ولم يتدَلَّ إلى أسفل ، وهذا من أحسنِ خَلْقِ النِّساء ، وهو ملازمٌ لِسِنِّ الشَّبَاب . ووصفهنَّ بالخور وهو حسنٌ ألوانهنَّ وبياضه ، قالت عائشة رضي الله عنها : البياضُ نصفُ الحُسن ... » (ابن القيم شمس الدين ، 2003 م ، ص 173) . وعلى هذا النمط من التفسير نجد الكثير من الآيات والآثار التي يتمُّ من خلالها وصف " المقدَّس " بما يُعرف عند النَّاس بأنَّه " مدنَّس " يدخل في عداد التَّابوهات ، ليُوصف به كلام الله تعالى على وفق تصوُّرات المفسِّر وبيئته ... وهو كثير كالذي نجده في تفسير " غير أولي الإربة من الرجال " من قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِرِ النِّسَاءِ ﴾ [التَّوْر : 31] . أو تفسير دلالة قوله

تعالى : ﴿ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ هُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ [الطور : 24] ونحو ذلك . أو ما نجده في بيان قصص بعض السُّور ، وما بها من أحداث ، كتفسير سورة البقرة مثلاً .

وفيما يأتي عرضٌ لنماذج من مرجعيات التفسير الجنسي المتمثلة في الأحاديث النبوية ، إذ نجد فيها تعزيزاً للتفسيرات الجنسية للنص القرآني ، مما يُعزِّز مرجعية التفسير هذه ، بالاستناد إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ونكتفي منه بعرض نموذجين :

النموذج الأول : هل يمكن إقامة علاقة جنسية قبل الزواج ؟

والإجابة بنعم لا تعكس حكماً مطلقاً بقدر ما تعكس واقعاً سوسيوولوجياً تصفه ألفاظ ما جاء في صحيح البخاري من كتاب النِّكاح ، رقم الحديث (5119) ، ص : 1304 بقوله : « وقال ابن أبي ذئب : حدثني إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أئماً رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليالٍ ، فإن أحبَّ أن يترابدا أو يتاركا تاركا " . وهو ما فتح الباب أمام تفسير للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة زمن النبوة ، ودعا إلى التساؤل عن مشروعيتها حتى قيل : " فما أدري أشيء كان لنا خاصة ، أم للناس عامة " . ليظهر بعد ذلك أنَّ هذا من مقتضيات الوجود الاجتماعي الذي تطوَّر فيه علاقة الجنس ، ونظرة الرجل للمرأة وعلاقته بها ، ضمن ما يضعه المجتمع من قوانين تشريعية تضبط تلك العلاقة ، وهو ما يوضحه قول أبي عبد الله : " وبَيَّنَّ عَلَيَّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه منسوخ " . وهو بيان للأخذ بالبعد الأنثروبولوجي عند دراسة مثل هذه الآثار وإنزالها على واقع الحال بين التعميم والتخصيص .

والنموذج الثاني : هو نموذج " رضاع الكبير " ، وقد كان مدعاةً لحديث كبير عن صدق وقوع الحادثة وصحة نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكيف يُوصف بهذا " المدنس " من لا ينطق إلاً مقدساً من القول ، وقد جاء الحديث في صحيح مسلم : رقم (1453) وما بعده . ضمن الصفحة : 464 وما بعدها . وملخصه يدور حول أنَّ أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة (وهو من الصحابة) تبنَّى (سالم مولى أبي حذيفة) . والطفل أصبح رجلاً كبيراً [له حية] كان يدخل ويخرج على زوجة أبي حذيفة ، فغار هذا الأخير ، وكان الأمر فيه إحراج لزوجته ولم يكن لها ما تستتر به [لباس شفاف] ... فلم يكن من حلِّ هذه المشكلة ، بحسب نصِّ الحديث [المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم] إلا أن تُرضعه

ليكون مثل ابنها ... !! وهذه هي نُصوص أخرى يتكئ عليها البعض في إثبات صحّة نسبة الحديث بالنظر إلى أسانيده وما وضعه علماء الحديث لصحّتها وضعفها : موطأ الإمام مالك: (1775) ، (1777) ج 02 ، ص : 123 - 126 . وصحيح البخاري : (4000) ، (5088) . ص : 981 . صحيح مسلم : (1453) وما بعده . ص : 464 وما بعدها . وإن دلّ هذا على شيء فإنّه لا يدلّ على تفسير المقدّس بالمُدّنس كما حاولنا في موضوع بحثنا هذا ، بل يعكس واقعاً اجتماعياً نظر فيه أصحابه إلى هذه النصوص ففسّروها وأولّوها من منطلقاتهم البشريّة ، ولا يمكن القطع بدلالاتها الإلهيّة ، وأنّها على ما أوردوه وإن تقاطعت مع مضامين تلك الآيات ودلالاتها ، وكانت من ضمن ما يمكن أن تُشير إليه معانيها .

وهو ما يعكسه اختلاف هؤلاء المفسّرين في شروح تفسيراتهم ، واختلافهم حول ما ينبجّر عنها ، ومن ذلك اختلاف العلماء حول ما عرضناه في النموذج الثّاني : هل تُرضع المرأة الرّجل - في هذه الحال - من ثديها مباشرة أم تضع الحليب في قارورة أو إناء وتُرضعه إيّاه ؟ ليزيد مثل هذا الشّرح والتّفسير والتّساءلات بيان إشكاليّة تفسير النّص المقدّس بما هو " مدّنس " في عُرف النّاس ، ممّا يحمل على وصف القرآن بما لا يليق به ، ويدعو إلى الجرأة على نُصوصه بزعم ما قاله هؤلاء المفسّرين والعلماء دون أخذ البُعد الأنثروبولوجي لهذه النّصوص في الحُساب .

ونختم هذا البحث بما قاله " أبو عمر ابن عبد البر " في بيان تعاطيهم مع الإشكال السّابق ، وأنّه كان يأخذ مساحة من تفكير العلماء واجتهاداتهم ! لما استعظموه من دلالات تلك النّصوص وما يمكن أن ينبجّر عن تطبيقاتها فيقول : " هكذا إرضاع الكبير كما ذُكر ، يُجلب له اللبن ويُسقاه . أمّا أن تُلقمه المرأة ثديها كما تصنع بالطّفّل فلا ، لأنّ ذلك لا يحلّ عند جماعة العلماء .

خاتمة :

يمكن القول في ختام هذا البحث إنّ الكثير من الدّراسات السّوسولوجيّة التي سعت إلى أن تقدّم نفسها بوصفها دراسات علميّة موضوعيّة غير لاهوتيّة للطّاهرة الدّينيّة ، قد ساهمت - رغم ما بها من خطورة في وصف حقيقة النّص المقدّس - في دراسة مختلف الطّواهر الدّينيّة دراسةً اجتماعيّةً ، أزاحت حاجز القداسة عن تفسيرات البشر للنّص الإلهي ، وأنّ الكثير من التّفسيرات تعكس واقع المفسّر وحالته النّفسيّة والاجتماعيّة وليست ممثّلة لحقيقة النّص المفسّر .

وقد أمكننا - من خلال هذا البحث وما تمّ عرضه من بعض النماذج التفسيرية - أن نصل إلى النتائج التالية :

- النصّ الديني من أهمّ موضوعات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، وبالإمكان دراسته وفق آليات البحث السوسيولوجي دون أن يمسّ ذلك من قدسيّته طالما توجّه الباحث البحث عن الحقيقة .
- تناول النصّ القرآني قيمة " الجنس " باعتبارها أساس الوجود الإنساني وسبيل إعمار الكون بلغة إحيائية بعيدة عن الإسفاف وبها قدر كبير من التلطّف في العبارة واختيار ألفاظها .
- التفسير الجنسي لبعض آيات القرآن يخضع - في مجمله - لثقافة المفسّر والممارسات الشعبية الأنثروبولوجية ممّا يجعله في ساحة الاجتهاد البشري ، ولا يعكس بالضرورة الدلالة الحقيقية للنصّ القرآني ، ممّا يفتح المجال لإعادة قراءة النصّ القرآني وإعادة تأويله بما يتناسب وقُدسيّته .
- الدّراسة الأنثروبولوجية للدين في مجتمعاتنا العربية والإسلامية تعكس محوريتين الدين في معظم رؤانا وأساليب تفكيرنا الحياتية ، وتعكس تفسيرات القرآن الأفهام البشرية بما يتوفّر لها من آليات البحث والتحليل ... وهذا ما يعزّز ضرورة الاهتمام بالمقاربات الأنثروبولوجية للدين ، وإعادة النظر في الكثير من الاجتهادات البشرية في النصّ القرآني بما يتفق وقُدسيّته ، وهو ما يفتح المجال للمراجعة والتّقد لثرائنا الإسلامي بالتأمّل والتّقد ، وعدم التسليم لغير الحقائق .

المصادر والمراجع :

- 01 - بوحديّة ، (عبد [2001 م] ، الإسلام والجنس ، ترجمة وتعليق : هالة العوري ، الطّبعة الثّانية ، رياض الرّيس للكتب والنّشر ، الوهاب بيروت، لبنان .
- 02 - تيلوين ، (مصطفى [2011 م] ، مدخل عام في الأنثروبولوجيا ، ط 01 ، منشورات الاختلاف ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان.
- 03 - جاد ، (محمّد محمّد [1979 م] ، الإسلام والعلاقات الجنسية بين الرّجل والمرأة ، الطّبعة الأولى ، القاهرة ، مصر .

- 04 - ابن جُزي ، (أبو [1995 م] ، التسهيل لعلوم التنزيل ، ط 02 ، دار الكتب القاسم محمد بن أحمد -) :
05 - السامرائي ، (إبراهيم [1979 م] ، مقدمة في تاريخ العربية (الموسوعة الصغيرة 53) ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية . -) :
06 - ابن عجيبة ، (أحمد [1419 هـ] ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (نسخة محققة بن محمد بن المهدي الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس -) :
07 - العسقلاني ، (ابن [1995 م] ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : أحمد عادل حجر -) :
08 - الغزالي ، (أبو [2005 م] ، إحياء علوم الدين ، دار ابن حزم للطباعة والنشر حامد محمد بن محمد -) :
09 - الغدّامي ، (عبد الله [2006 م] ، المرأة واللغة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الثالثة ، محمد -) :
10 - لبيب ، (الطاهر -) : [1987 م] ، سوسولوجيا الغزل العربي (الشعر العذري نموذجاً) ، ترجمة : مصطفى المسناوي ، دار الطليعة ، الدار البيضاء ، المغرب .
11 - المنجد ، (صلاح [1958 م] ، الحياة الجنسية عند العرب ، الطبعة الأولى ، بدون الدّين -) :
12 - ابن القيم ، (شمس [2003 م] ، روضة المحيّن ونزهة المشتاقين ، خرّج آياته وأحاديثه : أحمد شمس الدّين ، ط 03 ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان .

مجلة أنثروبولوجية الأويان (المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

- 13 - ابن كثير ، (إسماعيل [2010 م] ، تفسير القرآن العظيم ، دار الكتاب الحديث ، الجزائر .
بن عمر-) :
- 14 - المنجد ، (صلاح [1958 م] ، الحياة الجنسية عند العرب ، بدون ذكر دار النشر ، الدّين -) :
ط 01 ، بيروت ، لبنان .
- 15 - ابن منظور ، (محمّد [؟] ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .
بن مكرم -) :
- 16 - نصر ، (جعفر [2017 م] ، محاضرات في أنثروبولوجيا الدّين ، الجامعة المستنصرية ، كليّة الآداب ، قسم الأنثروبولوجيا :
التّطبيقية المرحلة الرابعة ، مركز ابن سينا .
- 17 - أحمد ، (أبو بكر -) : الأنثروبولوجيا والدّين ، مقال منشور على موقع :
(http://sociomaroc.blogspot.com/2012/10/blog-post_30.html) .
- 18 - غرايبة ، (إبراهيم -) : مقدّسات ومحرمات : أنثروبولوجيا الدّين ، مقال منشور على موقع :
الغد :
(www.alghad.com) .